الحُب فوق هضبة الهَرم

١

الحُب فوق هضبة الهَرم

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

نور القمـــر

-١-

تجربة جنونية، انتشر نبضها فى زمان الوداع، وانغرست جذورها فى طمى النيل، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا، مهومة فى الحى الرنان ذى الإيحاءات اللانهائية، روض الفرج. اهتدانى إليه مصير حتمى، فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى الإسكندرية أو رأس البر. وهناك وجدت مقلدا لكشكش بيه، وآخر لبربرى مصر الوحيد، ثم قادتنى قدماى - من باب العلم بالشىء - إلى كازينو (الواق الواق) فقضيت سهرة سماع لصوت (نور القمر).

لعله أصغر المسارح، يقع فى نهاية الخط، مرسوم على هيئة سفينة، تطوق جانبيه أشجار الياسمين والحناء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشمل وسطه صفوف الكراسى الخيزران. يقدم أول ما يقدم تواشيح عريقة، وتختها المكون من القانون والعود والكمان والرق وأربعة من السنيدة العجائز.

رفعت إلى المطربة عينين فاترتين، شيء أرعشنى كجرس تنبيه، انحصر وعيى كله فى النظر، لم أسمع من الغناء إلا أصداء متلاشية، انسحب منى الماضى وذاب، واتجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة، منذ تلك اللحظة أمسى (الواق الواق) مقصدى كل ليلة طوال فصل الصيف، لم أهجره ولكنه هجرنى بانتهاء المصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات، وتحول روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال.

-٢-

من هى (نور القمر)؟

امرأة ناضجة. تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة. لعلها فى الثلاثين. تختلف الآراء فى تقدير سنها بحسب الأهواء. لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها. قوى مجهولة تعزلها عن الناس فى موسم العمل ثم سرعان ما تختفى بقية العام، جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها ولكننى - فيما بدا لى - خصصت بالهيام بها لحد الجنون. ماذا؟ إنهم منهكون فى الأكل والشرب والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين سلبت منى - بشراهة - الروح والجسد. ويقول من يدعون الخبرة:

- صوتها رقيق محبوب..

فأقول:

- ولكنها لا تغنى إلا الأغانى القديمة، وفى اعتقادى أن أى ملحن معاصر يسره أن يلحن لها..

ـ ولِم تدفن نفسها فى روض الفرج؟

ـ من يدرى؟

من يدرى حقّا؟ إنها سر مغلق. علمى بها ـ كالآخرين ـ محدود جدّا، أما هيامى فلا حدود له، على أى حال لم أعرف فى حياتى الانطواء أو السلبية.

ـ ٣ ـ

ولكن من أنا؟

من ذوى المعاشات، فى الخمسين من العمر، أعزب، ليس بينى وبين المرآة التى تعكس صورتى أى ضيق أو اعتراض. أحب الطعام الجيد، أكول، أحسن طهى ألوان من الطعام كأمهر الطهاة، ضحوك، صافى السريرة، غير أن عزوبتى ركزت اهتمامى فى ذاتى فعلقت بى أنانية طفولية. كنت ضابطا بالجيش، أدركنى المعاش وأنا صاغ فى الخامسة والأربعين من عمرى، خدمت فى السودان والصعيد والسلوم. وكنت طوال عمرى جامح الأهواء، مغرما بالنساء، وسيئ السمعة، فى صباى وشبابى خيبت أمل والدى، رغم أنى كنت وحيدهما، بذلا جهدا طموحا ليجعلا منى طبيبا أو وكيل نيابة ولكننى لم أظفر بالابتدائية إلا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كى تجعل منى شيئا ما. وكنت بدينا مفرطا فى البدانة.. رمقنى ناظر المدرسة الإنجليزى بدهشة، كأنه تساءل عما جاء بى،

ولكنى أظهرت من البراعة فى السباحة والعدو ما سره وفتح قلبه لى فقبلنى أو أصر على قبولى وهو الأصح. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربية، لا الوطنية ولا الروح العسكرية. غير أن الروح تتولد بطريقة ما، أما الوطنية فقد تكفلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت فى مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة وأصابنى جندى إنجليزى بالسونكى فى وركى، ولولا العفو العام لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء فى وظيفة محترمة نوعا ما. وتخرجت ملازما ثانيا فى نهاية أربعة أعوام دراسية، منها عام عقوبة لاشتراكى فى المظاهرة. وفى الترام سمعت أحدهم يهمس:

ـ كل هذا البدن وملازم ثان فقط؟!

فهمس الآخر:

ـ إنه فى وزن لواء!

وكان اللواءات فى تلك الأيام ذوى كروش وبدانة، تحسبهم قصابين لا عسكريين. ومات والداى، وامتدت خدمتى خمسة وعشرين عاما، ثم أدركنى المعاش فوجدت نفسى ضخما وحيدا ضائعا يعيش فى زنزانة انفرادية فى صورة شقة. رسمت خطة لإنقاص وزنى فصرت مقبولا، وفترت بهجة الطعام والنساء، وكان الشعر يستهوينى فقررت أن أتخذ من حافظ إبراهيم مثالا على نحو ما، وشغلت وقت وحدتى بالقراءة فى شتى المعارف الدنيوية والدينية، وبت من رواد قهوة المالية ـ قهوة أصحاب المعاشات ـ ألعب النرد والدومينو وأتكلم فى السياسة، وأعلق على الأحداث،

أفلسفها مستعينا بثقافتى المتنامية. ثم أنضم لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتى فاقترحوا على أن أتزوج.

ـ الخمسون مقبولة، صحتك جيدة، لم تشب شعرة واحدة فى رأسك بعد، والجنس يعيش فى مثل هذه الظروف حتى آخر العمر..

فكرت فى ذلك باهتمام فاق تصورى، ولكن ثبط همتى أن ظروفى لم ترشحنى إلا لامرأة يائسة وقد أبيت ذلك. الحق أنى اعتدلت فى شهواتى. ربما كرد فعل لما سبق، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعى فى القهوة، ونادرا ما وجدت الدافع القوى لمطاردة إحداهن. أصبح لهن فى قلبى أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيين، حتى اقتادنى مصيرى المحتوم إلى الواق الواق.

ـ ٤ ـ

عرفت الحب لأول مرة فى حياتى. إنه كالموت تسمع عنه كل حين خبرا ولكنك لا تعرفه إلا إذا حضر. وهو قوة طاغية، يلتهم فريسته، يسلبه أى قوة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصب الجنون فى جوفه حتى يطفح به، إنه العذاب والسرور واللانهائى. تلاشى شخصى القديم تماما وحل محله آخر بلا تراث ولا مبادئ، ينقض على مصيره بعينين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: (كيف الوصول إلى نور القمر؟).

إنها تغنى وصلتين ثم تختفى حتى مساء اليوم التالى. لا ترى

إلا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورة قط. الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك، ويسعين إليه، أما هى فما إن تفرغ من الغناء حتى تتلاشى فى الكون. وإنى رجل فى الخمسين، محدود الدخل، لا جاه ولا مركز. لا قدرة لى على حيازتها، ولا أدرى إن كانت تقبل علاقة عابرة، أما ابتغاء الرضا والحب فما أبعده عن تصور من كان فى مثل سنى وحالى، وأما الزواج فماذا يعنى لها إن لم يعن الأبهة والرفاهية؟!

أشار علىَّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسى المعذبة، ولكن ليس للعقل صوت يسمع فى ضجة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كله أن يتحول خبير الأطعمة المتقنة، زير النساء، إلى مجنون ملهم، يهيم فى دنيا الحب المترعة بالأسرار، يخاطب بأنينه المجهول، ويجد فى البحث عن لا شىء فى كل شىء، فى ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء، فقد غطت (نور القمر) على حياتى وحياة الكون من حولى..

ـ ٥ ـ

وفى بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهر ولو كان فى الأصل غليظا مشبعا بالإثم. وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لى أن أعرف الشجى، وأترنم بألحان الأسى.

مضيت أنسحب برفق من جو أصحاب المعاش، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأت (نور القمر) وجدانى واستأثرت بوعيى. أبيت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجع نفسى وأضرب لها الأمثال من ماضى: استهتارى الفائق، ومغامراتى الجريئة واقتحاماتى المذهلة. عبدت دائما ما أهوى وأريد واستهنت دائما بالتقاليد والسمعة والقيل والقال. وموقفى يوم المظاهرة المشهورة هل ينسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفنا بالإضراب، ولما وجدنا ترددا أطلقت رصاصة فى الهواء! وتحديت بدانتى فكنت أعدو بسرعة الريح كأنى برميل بخارى. محال أن أتقاعس يا نور القمر..

-٦-

وصممت ذات ليلة، سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادنى الهوى وصبحت عليل

ثم غادرت مجلسى ماضيا إلى الباب الخلفى للكازينو واعترضنى البواب فقلت بكبرياء:

ـ أعرف طريقى!

سرعان ما جاءنى الجرسون حمودة مبتسما متسائلا:

ـ أى خدمة يا بيه؟

ـ حمودة، أرغب فى مقابلة نور القمر لأهديها إعجابى.

ـ الجميع يعلنون الإعجاب بالتصفيق .

ـ ولكنى أريد أن أقدمه بنفسى .

ـ ممنـــوع .

فتساءلت بحدة :

ـ من صاحب هذا الأمر السخيف؟

ـ أصحاب الشأن فى الكازينو ، ما أنا إلا عبد مأمور . .

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أدرى يا سيدى ، جميع الزبائن يعرفون ذلك . .

فقلت بعجرفة :

ـ ولكننى سأدخل . .

فقال بتوسل يليق بزبون دائم مثلى :

ـ أرجوك يا بيه . .

ـ على مسئوليتى!

ـ هناك سنجة الترام .

أفقت من غضبى ، سنجة الترام هو فتوة المحل وحاميه ، لا قبل لى به فضلا عن أننى فى الخمسين من العمر ، تراجعت متسائلا فى استنكار :

ـ لهذا الحـــد؟

ـ أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب!

تنهدت لأروح عن غيظى، وقلت له:

ـ إذن فعليك أن تبلغها إعجابى..

فقال بأسف:

ـ ولا هـــذا!

ـ أمر غريب حقّا!

ـ ما باليد حيلة..

ـ لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها؟

فقال وهو يحنى رأسه:

ـ الراقصة وجوقتها تحت أمرك!

ـ ٧ ـ

إن هى إلا جـولة خـاسـرة ولكنهـا ليـست كل شىء. الطريق طويل والزمن طويل. ها هو ذا صـــوتك الحنون يتـــسـرب إلى أعـماقى معطرا بالفتنة وليس بينى وبينك إلا خطوات. لو كـان لى أنف كلب لشـمـمت أنفاسك، لو كـان لك قلب لركـزت بصـرك على عابدك. ولو أعيتنى السبل المادية فى الوصـول إليك فثمة قوة الحب سـتصنع مـعـجـزة فـائقـة للعـقل وفى الـوصـول إليك هازئة بأعين الحراس.

فى تلك الليلة تعمدت التأخير حتى استقللت الترام الأخير، واخترت مجلسى إلى جانب الجرسون حمودة، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعد الرجل للحديث المتوقع. ولما غاص الترام فى الظلام شاقا طريقه بين الحقول تساءلت:

ـ ما معنى هذا يا حمودة؟

ـ تسأل عن نور القمر؟.. هذا هو الواقع..

ـ أهى سيدة مصونة حقّا؟

ـ هى كذلك فيما نرى..

ـ وما السر؟

ـ لا علم لى به.

ـ يوجد سر ولا شك.

ـ علمى علمك.

ـ إنك تعرف السر ولكنك تمكر بى.

ـ صدقنى، ليس عندى أكثر مما قلت.

ـ هل تؤمن بالخرافات؟

ـ إنها حقيقة لا خرافة.

ـ هل تصدقها؟

ـ فلنسلم بأنها شاذة، ما الفائدة؟

ـ عندك تفسير لها؟

ـ لا أشغل نفسى بالتفكير فى ذلك .

ـ وراءك أشياء ولا شك؟

ـ أبدا، صدقنى . .

ـ هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

ـ كما ترى فإنى أذهب قبل ذلك حتى لا يفوتنى الترام الأخير .

ـ بأى وسيلة تذهب هى؟

ـ ربما بالتاكسى، حنطور المدير موسى القبلى، فورد صاحب الكازينو حفنى داود، من يدرى؟

ـ الآن فهمت . .

ـ ماذا فهمت يا سيدى؟

ـ إنها عشيقة أحد الرجلين!

ـ الله وحده يعلم .

ـ ألا يعرف أحد شيئا عن سيرتها الخاصة؟!

ـ نحن نتجنب الفضول حفظا على رزقنا . .

ـ أين تسكن المرأة؟

ـ لا أدرى . .

فتنهدت وقلت بنبرة اعتراف :

ـ حمودة، أنت تدرك ولا شك ما وراء أسئلتى الملحة؟

ـ أجل يا بيه.

ـ والعمل؟

ـ ما باليد حيلة.. النساء كثيرات.. وكلهن فى النهاية طعام واحد..

أهديت إليه سيجارة، وغمزته ببريزة، ولكنه قال:

ـ إنى لا أخدعك، وليس عندى مقابل!

ـ حمودة!

ـ صدقنى، لقد وقع فى هواها عمدة صعيدى واسع الثراء، ولكن ماذا أفاد؟

فهتفت بغيظ:

ـ إن ملكة مصر أيسر منالا من ذلك..

ـ هذا هو الواقع..

وتفكرت مليا ثم سألته:

ـ سنجة الترام رجل قوى، هل يمكن الاستعانة به؟

ـ لا أدرى، جرب إن شئت..

حقّا إن مجرد الاتصال به مهانة ما بعدها مهانة ولكن ما الحيلة؟ سألته:

ـ هل تساعدنى فى ذلك؟

ـ إنه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب . .

ازددت امتعاضا وأنا أسأل :

ـ أيــن؟

ـ قارب شراعى . .

ـ ممكن تمهد لى السبيل باعتبارى من أصحاب المزاج؟

ـ هذا ممكــن . .

ـ ٨ ـ

لم أكن يوما من أصحاب المزاج . إنى من أصحاب الأمزجة الفوارة التى لا تتلاءم مع المخدرات . وقد دخنت مرة البانجو فى السودان وسرعان ما غشينى النوم فتوكد نفورى من المخدرات . وفى مثل الحال التى أنا مقبلا عليها بوسعى أن أمثل وأن أتجنب التدخين الحقيقى . ما العمل وجنونى يستفحل؟ لقد ضاعت منى نفسى . جعلت أنظر إليها ـ كغريب ـ بعين الرثاء والأسى . وهان علىَّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام . وهو ربعة ، متين البنيان ، ضخم الرأس والوجه ، فى جبينه ثلاث ندبات وفى أنفه اعوجاج ، واسع الأشداق كأنه من أكلة الأحجار . وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها ـ مع الإكرام ـ تستهلك خمسين قرشا ، وهو قدر لا يستهان به من الاستمرار الذى يقتضيه توثيق العلاقة .

تسللت إلى القارب فصافحنى على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم :

ـ أهلا . .

فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول :

ـ مساء الخير يا معلم سنجة . .

وانغرست على جانب وسط تكتل من الأوباش . وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبا ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعشعه أضواء النجوم كالهمسات ، لعلهم من تجار الغلال والبصل ، ينكتون ويقهقهون بفظاظة . ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء ، ولا طفتنا نسائم معطرة برائحة النيل . ورغم حذرى ثقل رأسى ، وناء قلبى بالحزن . ومن حسن الحظ أن أحدا لم يهتم بأحد فلم أضطر إلى الخروج من صمتى وأفكارى . وعند الوراق غادرنا البعض ، وانفض السامر عند الفجر .

ـ ٩ ـ

وثقت المساهرة بينى وبين سنجة الترام . مساء الخير يا معلم سنجة ، مساء الخير يا أنور بيه . دعوته للغداء عند الدهان فدعانى للغداء فى المذبح . وجدتنى أندمج فى أوساط البلطجية وتجار المخدرات . أرهقنى الخزى والحزن ، عجبت لتدهورى ، وكيف ساقنى إليه أنقى وأصدق عاطفة شدا بها قلبى . أجل طالما تحديت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة ، ولكن عربدة

العشاق شيء ومخالطة الأوباش شيء آخر. ولم أعد أختلف إلى المقهى إلا فى النادر. وخمن الصحاب أن فى الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوروا أى امرأة تكون، ولا أى تدهور دفعت إليه بيد حبها الناعمة، وطبعا كتمت سرى حتى لا أكون حديث الجاد والساخر. كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة غير أن بعض الشعر الذى سبقت لى معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدى بحسن جديد وتفجر عن قوى جديدة فأدركت أن جمال الشعر لا يكمن فى ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنه يكمن قبل كل شيء فى القلب البشرى.

وفى تلك الفترة من حياتى زارتنى عمتى نظيمة، أرملة فى الستين، بكريها مهندس مقاول قد الدنيا، وشقيقه موظف دبلوماسى فى سفارتنا بالحبشة. قالت:

ـ انقطعت عنى مدة ولكنى لا أنساك.

فلثمت خدها النحيل ممتنا، وجعلت تتفحصنى باهتمام أثار قلقى، ثم تساءلت:

ـ حتى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة؟

أدركت أنها تعود إلى موضوعها المفضل وهو (الزواج) فقلت:

ـ اعتدت يا عمتى العزوبة..

فقالت بحرارة:

ـ عادة سيئة، ضد مشيئة الله.

ـ كل شيء بمشيئة الله يا عمتى . .

احتست الشاى وهى تفكر ثم قالت بنبرات جديدة تماما :

ـ أنور . . حدثنى حمدى حديثا لا يصدق . .

حمدى مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة ، وقد اضطرب قلبى وتساءلت :

ـ مـــاذا؟

ـ قال إنك تصاحب قوما ليسوا من أصلك ولا مستواك!

فزعت . هل تتفشى الأسرار بهذه القوة؟ قلت مدافعا :

ـ كلنا أولاد حواء وآدم . .

ـ ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل!

وقرأت فى وجهى ولا شك تحرجى وضيقى فقالت برقة :

ـ أردت أن أحذرك فسامحنى . .

ـ ١٠ ـ

تألمت ولكنى لم أبال . عـــزمت على مـــزيد من الخطوات المسددة . ها هو ذا سنجة الترام يتردد على شقتى فى المنيرة رافعا الكلفة يتناول الطعام أحيانا ، وأحيانا يضطجع نائما ، ومرات أودع عندى حشيشه بعيدا عن أى مظنة . أصبح البيت بيته ابن القديمة ، وحمت حوله متحينا الفرص . آنس إلىَّ فروى لى قصة حياته منذ

نشأته فى سوق الزلط، معاركه، سجنه، بلائه فى ثورة ١٩١٩، حتى اختير فتوة لكازينو الواق الواق.

ـ موسى القبلى هو الذى اتفق معى..

ـ المدير؟

ـ نعـــم.

فقلت بمكر:

ـ يقال إنه قريب لنور القمر.

ـ كلام فارغ..

ـ بذلك يفسرون عزلتها الغريبة..

ـ سكارى وأغبياء..

ـ أصل عزلتها تثير القيل والقال!

ـ إنها حرة تفعل ما تشاء..

ـ تعنى أنها هى التى ترفض المؤانسة؟

ـ علمى علمك، ما يهمنى أننى مكلف بإبعاد من تحدثه نفسه، بالاقتراب منها..

ـ بلا علم بسبب ذلك؟

ـ ليكن ما يكون، هبها امرأة مصونة، أو رجلا متنكرا فى صورة امرأة، أو عشيقة للمدير أو صاحب الكازينو، ماذا يهم؟ من حسن الحظ إننى لا أرغب فيها..

وضحكنا طويلا، ثم سألته:

ـ ماذا كنت تفعل؟

ـ كنت أقتحم الحارس والمحروس!

فقلت بدهاء:

ـ ظننت أن الأسرار لا تغيب عن رجل مثلك؟

ـ الأسرار التى تهمنى فقط.

ـ ألست صديق المدير وصاحب الكازينو؟

ـ لك أن تعتبرنى صديق الجميع، ولك أن تعتبرنى بلا أصدقاء!

وكنت عرفت من طبعه أنه لا يطيق سماع ثناء على أحد فقلت:

ـ يبدو أن المدير رجل محترم!

فقال ساخرا:

ـ ما هو إلا قواد.

ـ قـواد؟!

ـ صاحب بيت دعارة!

انبهر رأسى بضوء فوسفورى مباغت. هل يستغل نور القمر بطريقة محنكة؟ يالخيبة الأمل إذا لم تكن المرأة إلا مومسا؟! ولكن حتى هذا الفرض لم يطفئ لمعة الوجد فى قلبى، بل لعله أرثها بفتح باب يسير للوصول. وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام فى مخايله فسألته:

ـ ما رأيك فى سهرة فى بيت موسى القبلى؟

فقال بازدراء :

ـ أعوذ بالله!

ـ من باب العلم بالشىء!

ـ ولكنك كهل محترم وأب!

فقلت ضاحكا :

ـ لست إلا أعزب!

ـ أعوذ بالله!

ثم مستدركا :

ـ وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسى بأسى «حقّا ينقصنى النصف الآخر» . .

ـ ١١ ـ

قلت للجرسون حمودة وأنا أغمزه ببريزة :

ـ دلنى على بيت موسى القبلى . .

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، غمز بعينيه، قال :

ـ بريزة أخرى . .

فأثنيت فى سرى على صدق فراستى .

ـ ١٢ ـ

البيت فى أول شارع مهران السندى المتفرع من شارع دوبريه، شقة أنيقة، صامتة، الأبواب مغلقة، كأنها خالية. قدمنى حمودة إلى موسى القبلى فتلقانى بوجه ودود غير الوجه الذى يدير به الكازينو. وقلت لنفسى من بلطجى إلى قواد يا قلبى لا تحزن. أما هو فقال بلا حياء:

ـ جنيهان من فضلك..

دفعتهما بلا تردد، فقال:

ـ آخر حجرة فى الدهليز، هل تريد شرابا؟ زجاجة الأوتار بجنيه واحد..

ـ اللص!.. إنها فى السوق بثلاثين قرشا. قلت معتذرا:

ـ ربما فى المرة القادمة.

فقال بشىء من الفتور:

ـ الهدوء هنا مهم جدّا!

ـ ١٣ ـ

كم لعب الأمل بقلبى أن أجدها عقب فتح الباب ولكن المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة. ها هى ذى امرأة أخرى لا رغبة لى

فيها. تنضم إلى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية فى العدم واللامبالاة. وقررت أن أحوز ثقة موسى القبلى ورضاه. كما فعلت مع حمودة وسنجة الترام. وسطاء سوء ولكم بيد أحدهم مفتاح الكنز. مثل هذا العناء تكابده الشجرة حتى يتمخض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة.

واقترحت عليه ـ موسى القبلى ـ فى المرات التالية أن أشاربه فى حجرته الخاصة قبل الذهاب إلى حجرتى المقسومة. انبسط واعتبر ذلك تحية فريدة. وذات ليلة قال لى:

ـ علمت أنك من زبائن الواق الواق؟

ـ ألم تقع عيناك علىَّ طالما رأيتك وأعجبت بإدارتك؟

ـ الأمر مختلف غير أو وجهك بدا لى غير غريب وأنت تطالعنى هنا لأول مرة.

شجعته على الشراب، وقلت:

ـ إنى أشرب فى اعتدال لأسباب صحية.

ـ لكنها مفيدة للصحة.

فقلت ضاحكا:

ـ الأمر مختلف.

ـ موظف؟

ـ على المعاش.

ـ لكنك مازلت فى طور الرجولة؟

ـ الضابط يحال على المعاش فى أى سن . .

ـ كنت ضابط جيش؟

ـ كنت!

فضحك عاليا وقال :

ـ حلمت فى صغرى بأن أكون ضابط شرطة .

ـ مصيرنا فى الحياة لا تتحكم فيه رغباتنا .

وهو يضحك مرة أخرى :

ـ على أى حال فعملى ذو علاقة وثيقة بالشرطة!

ـ فال الله ولا فالك .

ـ متزوج؟

ـ كـــلا .

ـ يندر أن يجىء أحد فى سنك .

فقلت ساخرا :

ـ الحياة دائمة التقدم .

ـ وكيف عرفت بيتى؟

ـ صاحب الحاجة مستكشف . .

ـ حمودة؟

ـ نعـــــم .

ـ رجل غاية فى الفطنة .

فرميت سهمى الأخير قائلا :

ـ وقف مصادفة على سر شغفى بنور القمر . .

رفع حاجبيه الخفيفتين وقال :

ـ أنت من عشاقها؟

فحنيت رأسى لبـلوغى آخر الأبواب ، وانتظرت الفرج غير أنه قال :

ـ لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد . .

ـ ولكن الشغف سبق اكتشاف عزلتها . .

ـ لا تهتم بالممتنع ، عندى من هن خير منها!

يا للداهية! . . هل خاب المسعى أيضًا؟! وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد؟

ـ ١٤ ـ

وسألنى سنجة الترام :

ـ كيف تطيق هذه الوحدة؟

كـان قـد فـرغ من قـدح الشـاى الرابع فـاسـترخت جـفـونه من السطول ، أجبته :

ـ العادة أقوى من الوحدة .

ـ وهل يليق بمثلك التردد على بيت دعارة؟

فلم أحر جوابا ، أما هو فقال :

ـ اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك .

فضحكت وقلت :

ـ إنى الأعزب الأبدى يا معلم سنجة . .

فقال بصراحة مخيفة :

ـ عندى بنت مطلقة .

لطمنى قوله كنذير حريق ، أما هو فواصل :

ـ بنت ممتازة ، هدية ، أوقعها سوء الحظ فى رجل لا قيمة له .

ما توقعت أن أتعرض لغضبه قط . لعنت فى سرى الزمان والمكان . قلت :

ـ يلزمنى تفكير طويل فالتخلى عن عادة مزمنة كالعزوبة ليس بالأمر الهين!

ـ ١٥ ـ

بات الخطر تحتى تماما مثل ظل منتصف النهار ، انسحب من التجربة كلها قبل أن يدهمك القضاء ، هكذا حاورنى عقلى .

ولكنى كنت أحلم بالنجاة وأن أتدحرج نحو الهاوية، لم تعد قوة بقادرة على صدى. الحب المستبد الذى لا قاهر له. ذلك الغول الذى تغنيه فريسته عن المطاردة. الحلم الذى يزرى بكافة الأحلام ويحولها إلى نفاية. لم أنقطع عن موسى القبلى جريا وراء المزيد من الأمل والعرفان. ولما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال:

ـ بيتى محترم، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع.

ابتسمت موافقا فتساءل:

ـ ما رأيك فى فتياتنا؟

فقلت بإصرار:

ـ اعترفت لك بأننى مشغوف بالغناء.

ـ نور القمر؟

ـ هو الحق.

ـ أنت رجل غريب.

ـ ألم تحبها أنت؟

ـ كلا.. الحمد لله..

ـ الحمد لله؟!

ـ لو بدرت منى حركة واحدة تنم عن ميل لفقدت عملى فى الحال.

ـ إذن فهو حفنى داود صاحب الكازينو!

ـ مــاذا تعنى؟

ـ هو العاشق الغيور . .

ـ إنه عجوز ذو وجه قرد .

ـ ذلك أدعى للغيرة . .

ـ صدقنى إننى أتجاهل الأمر كله .

ـ ولكن عندك أفكار ولاشك . .

ـ ليكن عاشقها أو أباها . . من يدرى؟!

ـ هــل . .

ـ هــل؟!

ـ هل يعجز مثلك عن مساعدتى؟

ـ ولم أكدر صفوى ومستقبلى بسببك؟

ـ كصديق . .

ولكنه قاطعنى بجفاء :

ـ ما أنت إلا مغرض!

ـ لا تسئ بى الظن . .

ـ لا تحاول إقحامى فى هذا الأمر ، لا تكن أنانيا ، غامر بنفسك إذا شئت وإلا فاصرف النظر .

فقلت بحرارة :

ـ أقدم لك الأسف والاعتذار!

مضيت أشاربه دافنا همى فى الصمت، ومضى يذوب فى النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثم سألنى:

ـ هل أغضبتك؟

ـ الحق لا يغضب، ولكن كيف عرفت حفنى داود؟!

ـ كان ناظر مدرسة أهلية وكنت كاتب حسابات عنده، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف، ومحاسبتها اضطر إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدم مشروع الواق الواق وضمنى إليه مديرا.

ـ ومتى عملت نور القمر عنده؟

ـ من أول ليلة، لعله لم يقم المشروع إلا من أجلها.

ـ وهو الذى فرض عليها العزلة؟

ـ على الأقل هو الذى أصدر الأوامر إلينا..

ـ أتصور أنها تجىء معه وتذهب معه؟

ـ فى الفورد..

ـ لا شك فى أنه أصبح ذا مال؟

ـ أعتقد ذلك..

لم أهدر الوقت سدى كما توهمت، لقد أثريت بمعلومات مفيدة، وتحدد سبيلى كما لم يتحدد من قبل، ولن أقطع صلتى بموسى القبلى مداراة لنوايا الحقيقية..

ـ ١٦ ـ

واقتحمنى سنجة الترام بزيارة توقعتها وخشيتها. وكنت قد تجنبت الانفراد به لعله يدرك موقفى من اقتراحه ولكنه كان مدمن بلطجة، معتادا للأخذ دون مقابل ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء، وبتخلى البشاشة عن قسماته أسفرت عن دمامتها وندرها. تساءل:

ـ ماذا جرى؟

إنه يتساءل عن سر تباعدى رغم وضوحه فيضطرنى إلى اختلاق المعاذير. قلت:

ـ ليس المزاج على ما يرام!

فقال بقحة:

ـ هذه عاقبة التردد على بيت قواد!

فقلت باستياء:

ـ ليس الأمر كذلك.

فسأل ببرود:

ـ متى تفى بوعدك؟!

ـ أى وعد يا معلم؟

ـ ألم نقرأ الفاتحة؟

حملقت فيه بذهول فقال :

ـ قرئت بالقلب ، أم وجدتنا دون المقام؟!

ـ استغفر الله ، المسألة بالنسبة لى قفزة خطيرة .

فقال وهو ينهض :

ـ أم وجدتنا دون المقام!

غادرنى مضطربا . كلا . لم أعرف الجبن فى حياتى ، ولا كنت ممن تعرقلهم الخشية على حسن السمعة . لكنى شعرت بأننى مقبل على عاصفة أو أن عاصفة مقبلة علىَّ ، وحتى هذه اللحظة فالنجاة ممكنة . ممكن أن أسدل بيدى ستارا على روض الفرج وبيت موسى القبلى وقارب سنجة ، ثم أرجع إلى روتين حياتى السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة المالية . هذا ممكن نظريا ولكنه مستحيل فى الواقع . الواقع أننى فريسة جنون طاغ يلفظ كافة قيم الحياة ، ويتركز فى هدف واحد . ذلك يدفع بى فى شبكة من العلاقات المذهلة ، والأخطار المحدقة ، ويفتح لى طريقا واحدا إلى مصير محتوم .

ـ ١٧ ـ

تبادلنا الأنخاب ، أنا وموسى القبلى . قال وهو يتفحصنى :

ـ لعلك شفيت من حبك؟

فهززت رأسى نفيا ، قال :

ـ إنه أمر مضحك وعجيب . .

ـ هل عندك نصيحة؟

ـ أأنت غنى؟

ـ كـــلا . .

ـ هذا يعنى ٩٠٪ من الأمل .

ـ لا مؤهلات من مال وشباب!

فقال بدهاء :

ـ ثمة وسيلة للشفاء، أن تكثر من زيارتنا!

ـ يخيل إلىَّ أنك لم تعرف الحب يا موسى؟

ـ هـذا حـق . .

ثم مواصلا بقحة :

ـ الحق أننى لا أحب النساء، لذلك أتعامل معهن بمهارة فائقة .

تفكرت مليا فى معنى قوله، ثم سألته :

ـ أترى حالى ميئوسا منها؟

ـ حدثنى أولا عن حبك؟

ـ ماذا أقول؟ . . إنها تفرض ذاتها على وجدانى وخيالى، أقوى وأعز من الحياة نفسـها، لا غنى عنها كـما أنه لا غنى للحياة عن أشعة الشمس .

فضحك على رغمه وقال :

ـ ما أعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط متقاعد خبير بالناس والحياة!

ـ نحن نعرف معنى الأسر أكثر من غيرنا . فضحك مرة أخرى وقال وقد ثمل :

ـ منظرك ضخم لا يثير الرثاء أبدا!

فغضبت وقلت له موبخا :

ـ سكرت عليك اللعنة .

وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجى .

خف مسرعا مغادرا الحجرة . ترامت إلىَّ ضجة مريبة ، قمت إلى باب الحجرة وأخرجت رأسى إلى الدهليز . رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة والمخبرين!

ـ ١٨ ـ

لم أشعر ـ من قبل ـ بمثل الذعر الذى اجتاحنى ، تجسد لى وجه سنجة الترام وراء الكبسة . انقض على مخبر فقبض على أعلى الجاكتة صكنى بكوعه فى صدرى وهو يقذفنى بوابل من الشتائم . اجتيحت الحجرات ، سيق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا . من حسن الحظ إننى لم أضبط متلبسا ولكن أى حسن حظ . حاولت أن أهمس بهويتى فى أذن الضابط ولكن المخبر أرجعنى بلكمة فى

عنقى . انغمست فى العار حتى القمة . دفعنا إلى السيارة كخراف تشد إلى الذبح .

وصلنا إلى القسم وقد استل منى الإحساس والفكر . وكان تحقيق مهين . حجزت النساء ، وموسى القبلى ، وحررت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم . غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتى . غادرت القسم شخصا جديدا عاريا تماما !

ـ ١٩ ـ

ذكرت الحادثة فى صفحة الحوادث الصباحية . لم تعلن أسماء ـ عدا موسى القبلى ـ وقيل عنى «وضابط جيش متقاعد فى الخمسين من عمره !» . خُيِّل إلىَّ أنه إعلان كاف لفضحى فى محيط الأسرة وفى قهوة المالية . انزويت فى شقتى بالمنيرة غارقا فى القرف . طالت لحيتى وأهملت نفسى تماما . على تلك الحال زارتنى عمتى ، وأكد لى قلبى بأن صهرها أخبرها بكل شىء . أقنعتنى ـ ما وسعها ذلك ـ بأن زيارتها عادية . سأصبح حديث الأسرة المحترمة . أبناء عمتى وعمى وخالى أناس محترمون حقّا ، وطالما تبادلنا الازدراء الصامت . لا يحبنى فى أسرتى أحد إلا عمتى . ها هى ذى تعود إلى حديثها المفضل (الزواج) .

ـ لا تكن عنيدا .

حدجتها بارتياب فقالت :

ـ أهملت نفسك أكثر مما يتصور العقل .

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت :

ـ ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت :

ـ تصور!

ثم اغرورقت عيناها، وقالت :

ـ إنك صورة طبق الأصل من أبيك، لك منزلة فى قلبى لا نظير لها، ليتك تعمل بنصيحتى!

ـ ٢٠ ـ

لم أفد من الدرس ما يتوقعه العقلاء. قلت إن الجنون حقّا هو الرجوع بعد ما كان. تخففت من البقية الباقية من الحياء فمزقت أثوابى. من الآن وإلى الأبد سأنتمى إلى عالم غير عالم الناس. سأفتح ذراعى للجنون والسفه. وخمر النزق المعتقة. الحياة لا تتكرر والحب أغلى جوهرة فى تاجها. وفى سبيل الجنون المقدس تستحل كل حماقة. اقتلعت نفسى من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خف وزنى تماما وبت قادرا على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامى نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى. وهدانى الصوت الخفى إلى خاطرة مبتكرة وجريئة فقلت لحمودة الجرسون :

ـ سيسجن موسى القبلى فهل يمضى الكازينو بلا مدير؟

فقال وهو يرمقنى بانتباه :

ـ هذا ما يشغل حفنى بيه فى هذا الوقت . .

فقلت بهدوء :

ـ إنى أرحب بهذا العمل !

ـ أنت؟ !

ـ نعم أنا ، لم لا؟

فتردد متفكرا فقلت :

ـ قدم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئن !

فقال حمودة بارتياب :

ـ إنى أخمن الدافع وراء ذلك . .

ـ إنى أعرف الأصول !

ـ لدى أى خطأ تتورط فيه فسأعتبر بالتبعية متورطا فيه ومسئولا عنه وأخسر رزقى !

ـ لا تخش شيئًا من هذه الناحية .

ـ ألا تحاول الاستحواذ على المرأة؟

ـ كلا . .

ـ إذن لماذا ترغب فى هذا العمل؟

فقلت باسما فى ثقة وإخلاص :

ـ ربما لأعمل فى رحابها . .

ـ ٢١ ـ

دعانى حمودة ذات ليلة لمقابلة حفنى داود صاحب الكازينو الواق الواق. وجدته وراء مكتب صغير وأنيق فى حجرة تطل بنافذة على النيل، واستقبلنى بوجه محايد، وراح يتفحص هيكلى الضخم بلا انفعال. كان عجوزا فى السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه. شعره الفضى مفروق وممشط بعناية، كذلك شاربه. أشار إلىّ فجلست على أحد مقعدين جلديين متقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر فى صمت مليا ثم سألنى:

ـ اسمك؟

ـ أنور عزمى.

ـ أنت ضابط جيش متقاعد حقّا؟

ـ أجل..

ـ وترغب فى العمل مديرا للكازينو؟

ـ نعـــم..

ـ ما الذى دفعك إلى ذلك؟

قلت ضابطا مشاعرى تماما:

ـ الفراغ فتاك. ثم إننى محدود المعاش!

ـ أتراه عملا مناسبا؟

ـ لم لا . . وهناك سبب آخر أن أحتفظ به لموسى القبلى لحين خروجه من السجن!

ـ صديقه؟

ـ نعم . .

ـ ولكن العمل يحتاج إلى خبرة خاصة؟

ـ أكثر مدة خدمتى فى الجيش انقضت فى الفروع الإدارية فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات .

ـ العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكرية؟

ـ لا تنقصنى اللباقة!

وساد الصمت مرة أخرى ثم قال :

ـ لا بأس من تجربتك، ولكن اعلم أن أهم واجباتك أن تمنع المتطفلين عن نور القمر . .

ـ على الإقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم!

ـ عظيم . .

ونادى سنجة التـرام وقد دهش لمرآى، فقال له حفنى داود مشيرا إلىَّ :

ـ أنور عزمى المدير الجديد، تعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلى .

ـ ٢٢ ـ

لى مجلس خاص بمحاذاة المسرح. وإلى جانب النسبة المئوية التى تشكل مكافأتى على امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء. عملى الأساسى المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدى لأى خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة، إلى المهمة المقدمة على غيرها وهى صد المتطفلين عن نور القمر.

ولكن ماذا فعلت بنفسى؟

أظن يحسن بى أن أدفن هذا السؤال وأمثاله. عملى أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردد على بيت موسى القبلى، أو موقفى فى القسم. فلتدر أسئلتى حول الحب نفسه فهو السر الجدير بالبحث والفهم حقّا. على أى حال فأنا لم أقع فى هوى امرأة عادية، جمالها الفائق معترف به من الجميع. وهى تتبدى فى هالة من الغموض المثير للفضول. تحدث بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلال. ولكن هل اقتربت منها حقّا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب المادى. فهأنا ذا أعمل لحساب حارسها الأخير. أقابله يوميا، أتلقى تعليماته. أقدم له الحساب إنى أتحرك على بعد خطوات من استراحتها الخاصة. سألتقى بها ذات مرة، فى حجرة حفنى داود أو فى الممشى وراء الكواليس. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد. لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس. كأنى بذلت ما بذلت وضحيت بما ضحيت لأصل فى النهاية إلى

القرد العجوز. وإلى هذا كله جعلت أرقب سنجة الترام بحذر، وأخاف جانبه، وقد أعطانى حقى وزيادة. بل سألنى مرة:

ـ ألم تحن من جديد إلى قاربنا الشراعى؟

فشكرته بقلب يفيض بمقته وقلت:

ـ ستجمعنا الأيام بإذن الله.

لا شك فى أنه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجدنى ـ نتيجة لها ـ مديرا عليه! ولا خطر ببالى أن عملى الجديد سيبعدنى عن نور القمر خطوة بدلا من أن يقربنى منها خطوات. كنت وأنا زبون أراها من مقدمة الصفوف وفى مواجهتها، أتملى طلعتها البهية طيلة الوصلتين، وأسبح فى تيار أنغامها المنسرب، أما الآن فلا أراها إلا من زاوية جانبية، ويشغلنى العمل كثيرا عن التركيز فى عذوبة الصوت، وأسير أحيانا فى الممشى الفاصل بين جانبى الصالة كأنما لأتفقد النظام، وفى الحقيقة لأملأ عينى منها، وبأمل أن ألفت عينيها إلى عبدها المعذب ولكنها كانت تهيم فى النغمة ولا ترى السامعين. وبات عزائى الوحيد أننى أنتمى إلى العالم الغامض المنور بنور القمر..

ـ ٢٣ ـ

ثمة علاقة عجيبة بين حفنى داود ونور القمر، ما هى؟ هو الذى يسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التى

لا يجوز تخطيها، وهى تجىء وتذهب، تغنى وتسكت، تنزوى وتصمت، بإملائه وتوجيهه، فأى قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد؟! وإلى هذا كله فهى تتبدى هادئة سعيدة، لم لا؟ ما دام لا تبدر منها بادرة غضب أو تمرد، وهو ليس أباها فالقرد لا ينجب ملاكا، وليس زوجها وإلا لعرف ذلك على أوسع نطاق، ولا يتصور أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه، فما سر هذه العلاقة العجيبة؟! وهبه ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفى، لم لَمْ يجعل منها نجمة من نجوم شارع عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يشكل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هى عليه؟! هذا مؤكد فيما أرى، لا شك فى أنها القوة الحقيقية فى هذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتى الآن من مغامرتى إلا زيادة فى اضطرام عواطفى وهياج أحلامى وحومانى بجنون حول الخطوة التالية.

إنى أقبع فى مجلسى، رفيقى قدح من البيرة مكلل بالزبد، أناجى طيلة الوقت أحلاما طائشة. أتصور أنها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهويته، لمحته مرة أو أكثر، راقها منظره، لم لا؟ حدست السر وراء سعيه، وحتما سيصاب حفنى داود مرة بَوعكة تمنعه من المجىء، أو سينقضى أجله، أو أجد حيلة للتخلص منه، عند ذاك تتسرب أضواء الأمل فى هذا الليل البهيم، وينفسح المجال أمام الحب ليصنع معجزاته، إنى أتمزز البيرة، وأحلم، وأتذوق النشوة، أعانى العذاب المقدس. ومن ناحية تلاطفنى بسمة مفعمة بأريج الياسمين..

ـ ٢٤ ـ

الظاهر أننى شغلت بال حفنى داود كما شغل بالى، فعقب المحاسبة والتشطيب فى ذات ليلة قال لى:

ـ لا تذهب.

فلبثت فى مقعدى الجلدى لعبة بيد الاحتمالات المتناقضة، ونهض قائلا:

ـ تعال.

خرج من الباب الخلفى وأنا ظله، رأيت الفورد قابعة فى الظلام المتفشى عقب التشطيب وإطفاء الأنوار. فتح الباب الخلفى قائلا:

ـ تفضل..

واتخذ مجلسه فى المقعد الأمامى أمام عجلة القيادة. سرعان ما تبينت وجودها إلى جانبه فكاد قلبى يثب من صدرى. هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعى منى أو تدبر، جاءت كضحكة الشروق مسربلة ببهجة سماوية. واندفعت تلقائيا إلى تحيتها فقلت:

ـ مساء الخير يا هانم.

فغمغمت برد غامض. وخفت عواقب خرقى للتقاليد، ركزت بصرى عليها لائذا بالظلمة. تمليت رسم خلفية رأسها وأعلى منكبيها، ميزت قبعتها العريضة وشملتها المطرزة بالترتر، وثملت

بعطرها الفواح. شبران هما ما يفصلان بينى وبينها. انسابت السيارة فى الظلام ممزقة هدوء الحقول بأزيز محركها، انسبت معها فى بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره الشجى. وددت أن أسمع صوتها وهى تحادثه أو أن تمتد الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيارة تدخل حى المنيرة، الحى الذى ولدت وما زلت أقيم فيه، ودارت إلى شارع أصلان فوقفت أمام فيللا صغيرة مكونة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التى أسكن فيها مباشرة، لم أتمالك إن قلت بدهشة:

ـ إنى أسكن العمارة خلف الفيللا مباشرة!

فأجاب حفنى بصوت محايد أطفأ حماسى:

ـ عظيم..

أدخلت إلى حجرة أنيقة مؤثثة على الطراز العربى. جلست على ديوان رانيا إلى القنديل بإعجاب، مناديا إرادتى لجمع شتات فكرى والسيطرة على هوج انفعالاتى. لبثت وحدى عشر دقائق، استقر بقلبى خلالها إحساس مطمئن بالانتماء.

وجاء حفنى داود فى روب صيفى مزركش مثل جدران الحجرة، يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة. رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة. أتقع المعجزة وتهل نور القمر بطلعتها السنية؟!

ذهب إلى الباب فأغلقه ثم اتخذ مجلسه بادئا النشاط المعهود. خاب الأمل. صمتت بلابل السرور. ما الذى دعاه إلى

استصحابى معه؟ رغم طعونه فى السن فهو مدخن شره. جاريته رغم نفورى الطبيعى من المخدر. مهما يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت إلى المقام وأمسيت جليسا لصاحبه. وإذا به يقول:

ـ لا شك فى أنك تتساءل عن سر الدعوة ولك حق، اعلم أنى رجل صريح واضح، وأنت بدورك رجل عسكرى لا يناسبه اللف والدوران.

فرنوت إليه متسائلا، فقال:

ـ المسألة تتلخص فى الآتى، سفر إلى السويس، نزول فى فندق الفردوس، يدخل عليك صباحا خادم بالفطور، يترك فى الحجرة لفة معينة، يذهب، تضع اللفة فى حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت الحدوتة!

إزاء كل عبارة تقهقرت ميلا منغمسا فى مستنقع الخيبة. تمتمت:

ـ تهريب!

ـ سمه ما تشاء من الأسماء، أربع مرات فى الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كل مرة!

ـ لكنه تهريب!

ـ الشك لا يمكن أن يرتقى إلى شخص محترم مثلك..

ـ عندك ولا شك من يقوم بذلك خيرا منى..

ـ أنت خير من يقوم به حتى يخرج صديقك من السجن.

فقلت باستياء :

ـ لن أكون مهربا !

ـ ألا يغريك الثراء؟

ـ بلى، ولكن الوسيلة أن تكون شريفة . .

ـ أنت حر طبعا، ولكن العمل لا مساس فيه للشرف !

ـ هو كذلك فى نظرى . .

ـ لعله الخوف؟ !

فقلت بحدة :

ـ لست جبانا . .

ـ أنت حر يا أنور بيه .

وخطرت لى فكرة ماكرة فسألته :

ـ أنت رجل محترم فلِم لا تقوم بالمهمة بنفسك؟

ـ وقتى لا يسمح بذلك !

فقلت بإصرار :

ـ لا أحب الأعمال المخالفة للقانون !

ـ أنا لا أعترف إلا بالقانون الإلهى . .

ـ آسف جدّا يا حفنى بيه . .

صمت . . رجعنا إلى التدخين المتواصل . تنهد أخيرا وقال :

ـ على أى حال لنفترق أصدقاء . .

ظننته يطالبنى بالانصراف فهممت بالقيام ولكنه قال بسرعة :

ـ لا أعنى هذا ، أعنى أن أختار مديرا جديدا !

وقفت مادا يدى ، صافحنى وهو يقول :

ـ فكر ، إنى منتظر جوابك النهائى غدا !

ـ ٢٥ ـ

نجح فى أن يبقينى صاحيا حتى صباح اليوم التالى . إنى مفقود بحسب التعبير العسكرى ، وقلت بصوت مرتفع فى حجرة الجلوس بشقتى :

ـ لا . . لا . . لا . .

إن يكن القرب نارا فالبعد موت . . . ومهما يكن الثمن فلن أرتضى هجر الواق الواق . فيم التردد وقد انتهى أنور عزمى من زمان؟ ! لقد هجر الأقارب والأصدقاء ، تخطى العرف والتقاليد ، تمرغ فى السمعة السيئة ، حمل فى سيارة الشرطة بين المومسات ، يعمل فى وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة . فيم التردد؟ لِم اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون؟ ! حقّا إنى أتدهور إلى غير مَا حد ولكن ما أحوجنى إلى رحمتك يا إله المعذبين؟ !

ومضيت إلى حجرة حفنى داود فرمقنى ببرود وتساءل :

ـ يبدو أنك اتخذت قرارا؟

فحنيت رأسى فى تسليم فسألنى :

ـ ترى كيف تغير رأيك؟

فقلت غاضا بصرى :

ـ الثراء، أليس هو بالإغراء الكافى؟!

ورجعت إلى مجلسى بخاطرة جديدة من الشك. هل فطن الرجل إلى غرامى بنور القمر؟ العاشق تفضحه أحواله. وهناك أيضا حمودة المطلع على سرى، وكان موسى القبلى كذلك قبله. ولعل العجوز لم يقبلنى مديرا إلا لعلمه بحالى واعتزامه استغلالى إلى أقصى حد. لو صحت ظنونى فعلىَّ أن أتوقع البطش بى لدى أول بادرة تهديد من ناحيتى. ولكن لعلها مجرد ظنون ووساوس لا أساس لها..

ـ ٢٦ ـ

ذهبت وجئت وقبضت. لأول مرة يمتلئ جيبى ويصير لى حساب فى البنك، من أعماق الظلمات التى أتردى فيها صعد إلى شعور ملىء بالثقة والنشوة، ينتشر مثل الشذا الطيب، أملى على بأننى أسير فى الطريق الصحيح وأننى بالغ شجرة طوبى[1].

(١) اسم شجرة فى الجنة.

شعور داخلى كنشوة الخمر . ذو قوة تتفتت حيالها صخور الواقع المتحدية . ولم يكن مجرد شعور باطنى فحسب . فالمنطق آزره بطريقته الخاصة معتبرا ما ترديت فيه من درجات السقوط مما لا يمكن أن يضيع عبثا ولكنه الثمن الفادح يؤدى مقدما ، وأن حسن الختام آت لا ريب فيه . هكذا عللت نفسى بالأمانى لأتزود بالصبر وألطف من نذالة الجو . وحسبى الآن أننى أمكث فى هالتها كل ليلة فى الفورد مقدار نصف ساعة تضاف إلى رصيد الوصلتين بالواق الواق . وحسبى أيضا أنى صرت عضوا خارجيا فى الأسرة وجليسا دائما فى الحجرة العربية ومغامرة يحمل إليها كل أسبوع كنز نعيمها الوفير ، ولدى بعد ذلك عزاء الإنسان ـ أحلامه المتهورة ـ التى تحلق به فى الفضاء بلا أجنحة .

وفى إحدى سهرات الليالى الزرقاء بالحجرة العربية سألته :

ـ لم تقنع بفصل نشاط محدود فى ملهى ثانوى بروض الفرج؟!

فأجاب باقتضاب :

ـ فيه ما يكفى . .

ـ ولكن ثمة ملحنين معاصرين متفوقين وألحان جديدة وملاهى عامرة بعماد الدين؟

فثقبنى بنظرة كريهة وسألنى :

ـ ماذا يهمك من ذلك؟

فرجف قلبى غير أننى ضحكت قائلا :

ـ يبدو أننى أصبحت من رجال الأعمال!

فقال ببرود:

ـ كلا. أنت موظف يا جنرال!

تضاعف حنقى عليه، تمنيت تحطيم جمجمته، وتساءلت:

ـ ألا تحب الذيوع والتوسع والشهرة؟

فأجاب بصوت أبرد من الأول:

ـ كـــلا..

المسألة أنك أنانى وجبان. وحريص على حبس العصفور المغرد فى القفص. تخاف عليها من الملحنين ومن الجمهور الحقيقى، ولكن لماذا لا تحكم قبضتك المعروقة المدبوغة فتبقيها فى الفيللا مثل جوارى الحريم؟!

ـ ٢٧ ـ

الحياة تمضى فى طريقها لا أجنى منها إلا أمر الثمرات. أحترق مثل الشمعة فيترسب ذوبى فى ماء آسن. وأسرى عن نفسى فأقول لها إنى خليفته، لا خليفة له غيرى. ولكن هل أقنع بالصبر كالعجائز؟ ألا يجدر بى أنا المغامر بالتهريب أن أغامر بالاقتحام؟! ولكن كيف وهو متصد لى مثل كلب الحراسة؟! حقّا إنى لمجنون. أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد فى مركز الأرض. ويؤكد

جنونى وأسرى الخفيف والنسمة والخوار والضجة والتغريد والألوان والضوء وكل شىء .

وتتوقف الحياة فجأة عندما تدق الساعة الثامنة مساء فلا يجىء الفورد كعادته كل ليلة . . انتظرت متابعا عقارب الساعة . اقترب ميعاد الغناء فاتصلت بالفيللا بالتليفون . رد على صوتها :

ـ آلـــو .

ـ آلـــو .

ـ أنور عزمى . . ماذا أخركم؟

ـ لن نأتى الليلة . .

ـ ولكن الجمهور منتظر . .

ـ تصرف . . مع ا لسلامة . .

قطعت الخط . وجدتنى فى دوامة من الابتهاج والانفعال والحيرة . إنه أول حوار يدور بينى وبينها وإن لم تمازجه نبرة طيبة أو كلمة مجاملة . أين حفنى داود؟ لِم لَمْ يبلغنى بالأمر؟ لِم لَمْ يرد بنفسه؟

وكان علىَّ أن أواجه الجمهور معتذرا عن غياب نور القمر .

ـ ٢٨ ـ

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيللا بشارع أصلان . نائمة مغلقة بالظلام ولا بصيص نور فى الداخل . إنها تطرد الزائر

بصرامة موحشة. مضيت إلى شقتى فلم يطرق عينى نوم حتى الصباح. ترى هل جاءت المعجزة؟ عم ينكشف الستار الأسود؟

ورجعت إليها حوالى التاسعة صباحا. سألت البواب:

ـ حفنى بيه موجود؟

أجاب الرجل:

ـ البيه مريض.

تصرفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت فى المدخل ممرضة فقلت لها:

ـ إنى مدير أعمال حفنى بيه.. كيف حاله؟

ـ لعله أحسن..

ـ ماذا به؟

ـ تعب فى القلب..

ـ هل أستطيع رؤيته؟

غابت دقيقة ثم رجعت وهى تشير إلى الدخول. رأيته راقدا لا يبدو من الغطاء إلا وجهه. لمحت مخايل الموت فى نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقعت!

ـ لا بأس عليك، شد حيلك..

أجاب بصوت خافت:

ـ شـــكرا .

ـ لن أرهقك بالحديث . .

ـ لا أهمية لذلك . . إنها النهاية !

أشار إلىَّ بالجلوس على مقعد قريب من الفراش وقال :

ـ لم أتوقع حضورك !

فتساءلت فى دهشة :

ـ كيف ؟ لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس ولكنى وجدت البيت نائما تماما . .

قال باقتضاب :

ـ ذهبت !

جفل قلبى ، تساءلت :

ـ مـــن ؟

ـ لم تضيع لحظة . . هربت !

ـ نور القمـــر ؟

ـ المتوحشـة . .

فترت انفعالاتى كلها كشعلة ضئيلة ردمت بكوم تراب ! فلم أدر ماذا أقول ، أما هو فقد تحطمت مغالبته وتدفق الاعتراف بلا ضابط . .

ـ إنها عذراء، إنه الحب، إنه الجنون، أنت تفهم معنى ما أقول!

حدجته بنظرة محرجة وبائسة فقال:

ـ توهمت وقتا أنه أنت..

ـ أنـــا؟!

ـ إنك برىء، وأحمق مثلى، إنها ابنة المرحومة زوجتى شبت تنادينى بالأبوة، ماتت أمها وهى عروس فى السادسة عشرة، حاولت محاولة يائسة ثم قررت الاحتفاظ بها مهما كلفنى جنونى، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهلية كانت تدر علىَّ رزقا لا بأس به...

وعيت كل كلمة ولكن ما الفائدة؟ سألته:

ـ أين تظنها ذهبت؟

تجاهل سؤالى وواصل اعترافه:

ـ حصلت على المال بأى ثمن كما تعلم لأوفر لها أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع رغبتها فى الغناء والفن، تجرعت العذاب ليلة بعد أخرى، فعلت المستحيل..

تساءلت بحيرة:

ـ ألم يكن بوسعها أن تتمرد عليك؟

ـ كـــلا..

ـ لِـــم؟

وهـو يتنهـد :

ـ موهبة إذا شئت !

ـ أى موهبة؟

ـ فى عينى ، لا تفسير لذلك . .

أيخـرف الـرجل؟ أيؤمن بالسـحـر؟ هل يتـمـتع بقـوة تسلطيـة خاصة؟

ـ بمجرد أن اقتحمنى المرض طارت . .

ـ متى؟ لقـد ردت على مكالمة تليفـونى فى منتصـف التاسـعة من أمس . .

ـ لـم تنتظر النهار . . ربما عند منتصف الليل أو عقب ذلك !

كان من الممكن أن أصادفها فى موقف أمام الفيللا ! يا للحسرة المعذبة ! وعدت أتساءل :

ـ أين تظنها ذهبت؟

فتمتـم

ـ يا له من سؤال أحمق !

ـ ٢٩ ـ

مات حـفنى داود فى نهاية الأسبوع . أغلق الـواق الواق أبوابه ولما ينته الموسم . توارت عن عينى الحياة الجديدة بأضوائها وأناسها

فوجدتنى منبوذا خارج الأسوار. أنا وحبى الشهيد. هل خدعنى الشعور الباطنى الملهم كما خدعنى المنطق؟! هل أرضى من الغنيمة بالإياب سالما من قبضة الشرطة؟ الحياة قفراء لدرجة الرعب. لا شىء ولا معنى ولا طعم. وهذا الإحساس المتغلغل فى الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة الأمل. هل أستطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذب؟ وإنى لأتحرى كلما وجدت إلى التحرى سبيلا. أستجوب بواب الفيللا وحمودة وسنجة الترام. أغشى الملاهى ملهى بعد ملهى. أمشى فى الأسواق والشوارع كالمخبرين. فعلت أكثر من ذلك. قصدت قسم المنيرة. أدعى أن لى دينا فى عنق الفتاة المختفية. أعطيت أوصافها وما لدى من معلومات قليلة عنها، طالبت بمعاونتى فى العثور عليها. اندفعت فى كل سبيل بقوة جنونى وألمى.

ولما بلغ بى الألم حده الأعلى قررت أن أقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار. تجنبت زنزانتى ما وسعنى ذلك ولكن قهوة المالية لا تشغل إلا بعض وقتى ولم تجد كثيرا فى تسليتى. خطر لى أن أقامر، فالقمار ينسى الإنسان النوم والطعام فلعله يبرئه من الحب. وجدت فيه مهربا محموما ولكنه لم يستطع أن يستغرقنى وأساء إلى أعصابى إساءة حملتنى على إعادة التفكير. والتمست الشفاء فى الكتب الروحية، ولا أنكر أنها فتحت لى باب أمل ولكنه لا يؤتى ثمرته بلقاء المحبوبة إلا بعد الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار. وخطوت خطوة جديدة تماما فاستشرت طبيبا نفسيا. قصصت عليه قصتى، رأيته يصغى بعناية وحدب. ولما وجدته يرمق هيكلى الضخم قلت له مرددا قولا قديما:

ـ منظرى لا يثير الرثاء!

فقال بجدية :

ـ إنك إنسان معذب . .

ثم قال بعد هنيهة :

ـ لا أعتقد أنك مريض إلا إذا اعتبرنا الحب مرضا!

فسألته بتوسل :

ـ ألا يوجد علاج لحالى؟ أعنى عقاقير مفيدة مثلا؟

ـ العقاقير مفيدة ولكنى لا أنصح بها إلا عند اليأس . .

ـ أظن أن حالى ميئوس منها تماما .

ـ ليس الأمر كما تتصور . . إنك سجين ذاتك وعلاجك فى أن تخرج منها . .

ارتبكت أمام أقواله فصمت مبتهلا ، فقال بوضوح :

ـ أنصحك أولا بالزواج ، أنصحك ثانيا بالاندماج فى نشاط اجتماعى أو سياسى ، إذا لم يجد معك فلدينا آخر وسيلة وهى العقاقير . .

بقدر ما أعانى من ألم بقدر ما أصمم على المقاومة ، أزمتى تكشف لى عن جوانب ظلت خافية فى نفسى بلا استغلال . زرت عمتى نظيمة وعالنتها برغبتى فى الزواج . صادفتنا عراقيل غير يسيرة . السن مثلا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتى الماضية .

ولكن ثمة نساء فضليات يعانين ظروفا سيئة ويرحين بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتح . . وجدت بينهن أرملة فى الحلقة الرابعة، أما لفتاة متزوجة، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة. جددت شقتى بالترميم والتجديد والطلاء ثم استقبلت بها عروسى. الأمر بالنسبة لى علاج. فى نظر عمتى رغبة فى الاستقرار والإنجاب، ليس زواج حب ولكنه زواج للشفاء من الحب أو تخفيف حدة جنونه، عناصره الأساسية الطيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة. سرعان ما لمحت مخايل الأبوة، تلقيتها بقلق وحب استطلاع ونوع من السرور، ولكن أسير الحب ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة. ثمة شعور بالذنب كدرنى أنى فى الحياة الأخرى سأطلق زوجتى المخلصة لأتزوج من الأخرى! من يدرى فلعل زوجتى ترجع وقتذاك إلى زوجها المتوفى أو إلى من يروق لها من الأرواح الخالدة!

ثم خضت تجربة الانتماء السياسى. تجربة مثيرة للعب عندما يشرع فيها إنسان جاوز الخمسين من عمره بلا انتماء. ألم يتقرر لى ميل محدد منذ اشتركت فى المظاهرة وأطلقت الرصاصة فى فناء مدرسة الشرطة؟ ولكن الوطن يموج بتيارات جديدة أيضا. تيار دينى عنيف، تيار يسارى متطرف، تيار فاشستى حاد. تحيرت طويلا بين المبادئ. فى كل واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض. وبدافع من ميولى القديمة اتجهت نحو الوفد، وبخاصة نحو جناحه اليسارى. فيه يطمئن إيمانى الراسخ بالله وحماسى العقلى الجديد للعدالة الاجتماعية. وهو محطة تأمل حتى اكتسب مزيدا من الخبرة والضوء وأفيد فى الوقت نفسه من

نفوذ الحزب الشعبى سرعان ما انضممت إلى لجنة الوفد بالمنيرة. انغمست فى الزوجية والسياسة، رغم ذلك ظل الأسير الكامن فى يناضل سلاسله، طالبت بترشيحى فى الانتخابات ولكن مطالبتى رفضت لحداثة عهدى الرسمى بالوفدية. رشحت نفسى على مبادئ الوفد. وجدتنى أنافس مرشح الوفد الرسمى ومرشحا آخر من الإخوان. وعند احتدام المعركة وزعت منشورات غريبة استهدفت نفسى تماما.

فيها كلام عن محضر الشرطة إثر القبض علىَّ فى بيت موسى القبلى، وكلام عن وظيفتى كمدير للواق الواق، وتعليقات ساخرة وجارحة، وخسرت التأمين، ولكنى كعادتى توثبت بكل قوتى لمواصلة المعركة السياسية، خطبت، حررت فى الصحف، وثقت علاقتى بالزعماء، تبرعت من مدخرات التهريب للجهاد، مضى الأسير على مضى الأعوام يتخفف من آلامه ويتحول ألمه إلى أسى مقدس وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعربدة.

* * *

وفى صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلمانى إلى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت. وفى ذات ليلة، فى رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتنى أمام نور القمر! كنا وبعض أعضاء الوفد فى جلسة سمر تضم صحفيا لبنانيا عائدا لتوه من باريس. تحدث بحماس عن مغنية من أصل مصرى، تشدو بأغانى (فرانكو أراب) وتحقق نجاحا متواصلا تتنبأ له بالعالمية. تدعى نور القمر!

زلزل قلبى لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة. اندفعت فى مجال التذكر والاستجواب متحررا من الجاذبية. انقلبت طفلا يلهو باللعب العقيمة والأحلام المتهورة ويناجى مرة أخرى المستحيل.

وعلمت من الصحفى أيضا أن مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية لها، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى، فبادرت - فى الفندق - إلى تحرير رسالة لها. قلت:

عزيزتى الفنانة الكبيرة نور القمر:

هل تذكرين أنور عزمى مدير الواق الواق؟ لقد جاءتنى أنباء نجاحك فى مكان لم تخطر لى من قبل زيارته، وعند رجل لم أتصور أن أعرفه يوما أو أن يمدنى عنك بخبر، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز القلم عن وصفها، سعادة موصولة بتراث قديم من الإعجاب والحب لك فى قلبى. أملى أيتها الفنانة الكبيرة أن تضعى مصر فى أعز مكان من رحلتك الفنية المقبلة، فهى الأصل، وفيها أول قلب نبض بحبك.

* * *

وفى مصر تلقيت الرد على عنوانى باللجنة. الحق أنه لم يكن ردا بالمعنى المفهوم. كان كارت بوستال تتألق فيه صورتها الخالدة، وعلى ظهره دون بخط اليد:

تحية شكر وتقدير

(نور القمر)

جعلت أقرأ المدون بعناية . كلا لم أسعد به السعادة المتوقعة . ليست رسالة شخصية من أى نوع كان . إنه أكلشيه للرد على المعجبين . لعلها أمرت بإرساله دون الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه ، إنه يدفعنى إلى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفى وآلامى المقدسة . ولكن ها هى ذى صورة لنور القمر بين يدى ، بكل بهائها وعذوبتها ، بين يدى رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسى إزاء المعجبين .

سأحتفظ بالصورة ما حييت . ومن يدرى؟ فربما رجعت صاحبتها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو الإقامة . ماذا يعنى هذا بالنسبة لى؟ لا أدرى أيضا ، لا أحب أن أحسم الموضوع بفكرة محددة لن أجنى من ورائها إلا العذاب . وإذا داخلنى شك ذات يوم فى حقيقة مغامراتى العجيبة فما علىَّ إلا أن أستخرج الصورة من حافظتى ، وعند ذلك تنطرح أمامى الحياة بكل ألوانها المتضاربة . وما يند عن مفاتنها من جنون مقدس .